في الحكايات الشعبية

بقلم : فوزي العنتيل

- ١ -

القصص الشعبي

يرى بعض الدارسين بأنه من الممكن أن يصنف القصص المأثور ـ بشكل تقريبي الى : أساطير ، وقصص خوارق ، أو قصص أحداث غير عادية ، وتتضمن ما يسمى بحكاية البطل ، والملاحم النثرية ، أما النوع الثالث فهو الحكايات الشعبية ٠

ومن ناحية أخرى فان القصص المأثور ينتظم بصورة طبيعية في صنفين : قصص رويت على أنها حقائق وهي الأساطير ، وقصص الخوارق ، وقصص قيلت للتسرية وهي الحكايات الشعبية بمختلف أنواعها ٠

واذا كنا نستخدم ـ في طريقة الحديث العادية ـ تعبير «الأساطير» ، وقصص الخوارق كما لو كانا متبادلين ، فان دارسي الحكايات الشعبية والمأثورات بعامة يفرقون بينهما ، فيقولون بأن الأسطورة قصة مخترعة ، ربما بغرض تفسير الأحداث الطبيعية الخارقة كالزلازل ، أو تفسير ما هو أقل خطرا من ذلك كطلوع الشمس وغروبها ، أو يكون غرضها تفسير بعض الأحداث الانسانية مثل الأحلام ، والتي كانت شيئا محيرا بالنسبة للشعوب البدائية ٠

أما حكاية الخوارق أو حكاية الأحداث غير العادية فانها من جهة أخرى ليست قصة مخترعة ، انها شكل تاريخي اختلط وأصبح غامضا نتيجة للاضافات المتأخرة ٠

فقد تجتمع فيها كل ألوان الأشياء الغريبة التي أضيفت اليها ٠ وقد يلتف حولها كثير من « المختلقات » والأساطير ، ولكنا نجد فيها ـ بصفة أساسية ـ نواة الحقيقة مهما اعتراها من تشويه ٠

ومن الممكن ألا نتبين في الحكاية الشعبية أنها قصة خوارق ، حتى يكشف البحث التاريخي والآثاري عن الحقيقة التاريخية مدخرة فيها ٠

ان مصطلح « قصة الخوارق » تعني في الاصل شيئا يتلى في الصلوات الدينية أو في وقت الطعام ، وكان هذا الشيء في العادة هو حياة القديسين والشهداء ، ومن

ثم ، فقد أصبحت تستخدم فى حكاية يفترض أنها تعتمد على الحقيقة مع خليط من المواد المأثورة قيلت حول شخص أو مكان أو حادثة ·

فهذا الشكل من الحكايات يقصد لأن يكون رواية لبعض الأحداث غير العادية التى يعتقد بأنها قد وقعت فعلا كطوفان أو هجرة ، أو غزو ، أو بناء جسر ، أو مدينة ·

ومع أنها فى الغالب تدور حول أشخاص تاريخيين أو حول حوادث تاريخية ، فان قصة الخوارق نفسها قد تكون مغلوطة ، أو لا أساس لها ، أو تكون قد رويت عن أشخاص آخرين فى أماكن أو أقطار بعيدة ·

اما الأسطورة ، فهى قصة تقدم كأنها قد وقعت بالفعل فى العصور الماضية ، قصة تفسر مأثورات الناس حول العالم وما وراء الطبيعة ، كما تفسر آلهتهم وأبطالهم والسمات الثقافية ، ومعتقداتهم الدينية وغيرها · فهى اذن قصة تعليلية غرضها تفسير وجود العالم ، والحياة والموت ، والإنسان ، والوحوش ، والطقوس المقدسة ، والعادات ، وما الى ذلك من الظواهر الغامضة ·

على أن الحد الفاصل بين الأسطورة ، وحكاية الخوارق مبهم فى الغالب ، وان كان من الممكن القول بأن الممثلين الرئيسيين فى الأسطورة هم الآلهة ، وأن غرضها هو التفسير ، بينما قصة الخوارق قد رويت على أنها حقيقة ، فى الوقت الذى نجد فيه أن صدق الأسطورة يرتكز على ايمان سامعيها بالآلهة الذين هم أشخاصها ·

ان الصعوبة فى تحديد الأسطورة قد جاءت من أنها قد سبقت مناقشتها منذ أمد بعيد ، وأنها قد استخدمت فى كثير من المعانى المختلفة ·

وقد حاول الدارسون المحدثون تحديدها فى أنها حكاية موضوعة فى عالم يفترض أنه سابق لوقتنا الحاضر ، وأنها تتحدث عن الكائنات المقدسة ، والأبطال ، وأنصاف الآلهة ، كما تقص نشأة جميع الأشياء من خلال الأفعال فى العادة ·

وترتبط الأساطير ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الدينية وممارسات الناس · فلا بد اذن من وجود الأساس الدينى من وراء الأسطورة بالنسبة للشخصية الرئيسية فيها ، أو يكون الممثلون فيها من الآلهة ·

فحيثما لا يقع مثل هذا التبادل فى العلاقة ، وكذلك حيثما لا يظهر الآلهة أو أنصاف الآلهة ، فمن الأنسب أن تصنف هذه القصص كحكايات شعبية ·

* * *

اذا تعمقنا الاساطير وجدنا أنها تمثل الاجوبة التى يقدمها التخيل الانسانى للمشكلات التى تتعلق بكيفية حدوث الأشياء مثل : كيف خلقت الأرض والسماء ؟ أو كيف جاء الشر الى العالم ؟ ·

ولقد واجهت معظم المشكلات المتصلة بالتجربة الانسانية الأسئلة ذاتها فى كل مكان ، ومن ثم فانه لا يثير الدهشة لدينا أن تكون الأجوبة فى أجزاء مختلفة من العالم شديدة التشابه ·

فالأسطورة اذن تمثل الاجابة الأولى للعقل الانسانى عن هذا الاحساس بالتعجب والذى هو جذور الفلسفة كما يقول أرسطو ·

انها تحاول أن تجيب بالتخيل عن الأسئلة التى ينشد العلم ـ فيما بعد ـ أن يوجد حلا لها عن طريق التعليل المقنع ·

ويقول بعض الدارسين : « اذا كانت الأسطورة تمثل «شكلا» مبكرا وبسيطا للعلم ، فان حكاية الجنيات تمثل « شكلا » مشابها بالنسبة للأدب الخيالى ، أما قصة الخوارق فانها « تاريخ » من نوع بدائى » ، وهى تخالف قصة الجنيات فى أنها تتعلق بشخص فعلى أو مكان أو ظاهرة اجتماعية أو دينية ·

وبسبب ان قصة « الخوارق » لها جذورها فى بعض الشخصيات الواقعية أو الأماكن أو الطقوس ، التى نجد أنها قد استهوت الخيال الشعبى ، فانها بالنسبة لاستهوائها الشديد الخيال قد تجتذب الى تأثيرها الخاص اضافات مختلفة من «مخزون» الأسطورة ، أو حكاية الجنيات ·

فقد تتحدث « قصص الخوارق » مثلا ، عن قتال مع المخلوقات الغريبة التى ما تزال العامة تعتقد فيها كالجنيات ، والأشباح ، وما الى ذلك ، وقد يمدنا هذا النوع من القصص بما توارثته الأجيال كذكريات ـ غالبا ما تكون خيالية ، بل وحتى غير معقولة ـ عن بعض الشخصيات التاريخية ·

هذا ، وينبغى مراعاة أن هذه القصص بسيطة دائما فى بنائها ، ولا تشتمل فى العادة على أكثر من جزئية قصصية واحدة ·

ويجب أن نضع نصب أعيننا كذلك ما قاله الدارسون من أنه يكاد يكون متفقا عليه بصفة عامة أنه يجب تناول قصة الخوارق بحسب ما تقتضيه ، وليس كلغز يوارى بعض المعانى الخفية ، وذلك لأن ما نسميه قصة من قصص الخوارق الآن ، كان يعنى بالنسبة لهؤلاء الذين رووا هذه القصة جزءا من أحداث التاريخ القديم ·

والصعوبة التى نلقاها ، هى أن نعرف ـ فى الحالة التى نكون بصددها ـ متى ينتهى التاريخ ويبدأ الاختلاق ·

حكاية البطل ، والملحمة النثرية :

أشرنا فى بداية هذا الحديث الى أن حكاية البطل ، والملحمة النثرية يمكن تصنيفهما فى اطار « قصص الخوارق » ، ويمكننا القول الآن ـ بالرغم من أن كل هذه التصنيفات تقريبية ـ أن حكاية البطل عبارة عن مجموعة من قصص الخوارق ، أو حكايات الأحداث غير العادية مرتبطة بفعال بطل من أبطال التراث الشعبى ، الذى يسلم جدلا بوجوده ، وأنها تتخذ من فعاله أو مآثره مادة لها ، ويكون هذا البطل هو غايتها الأخيرة ·

فاذا تتابعت تفصيلات هذه الاحداث التى تدور حول حياة الشخصيات ومغامراتها ، ففى هذه الحالة تصنف كملحمة نثرية « سيرة شعبية » ·

على أنه ينبغى ملاحظة أن حكاية البطل ، والملحمة النثرية ـ غالبا ـ غير متميزة بوضوح بعضها عن بعض ·

واصطلاح « **حكاية البطل** » يتميز بشموله عن حكايات العجائب الأخرى بسبب أن الحكاية من هذا النوع تدور فى عالم خيالى صريح ، أو عالم يسبق فى واقعه الخيالى ـ ان صح هذا التعبير ـ عالم حكايات الجنيات أو حكايات العجائب · وعلى الرغم من أن الأخيرة تتضمن بالطبع « أبطالا » فاننا نجد من الصعب أن نسميها حكاية « بطل » ، الا فى حالة واحدة هى أن تقص علينا سلسلة من المخاطرات حول نفس البطل ·

هذا ، ونجد أن الدارسين يفرقون بين الحكايات الشعبية بعامة وبين حكاية البطل ، والملحمة النثرية ، بأن الشخصيات فى الحكايات الشعبية مجهولة ، وأننا لانجد ـ فى الغالب ـ تحديدا للزمان والمكان فيها ، كذلك فانها لا تروى بجدية على عكس حكاية البطل والملحمة النثرية ـ وأيضا فان الموضوع فى الحكاية الشعبية محدد، وتنمو « العقدة » فيها ويتطور الحدث حتى يصل الى نتيجته الطبيعية · على حين أن « حكاية البطل » تقص ـ فحسب ـ مغامرة أو طائفة من المغامرات ، وتنتهى عندما لا يجد القصاص شيئا آخر يرويه ·

ـ ٢ ـ

طبيعة الحكايات الشعبية

فى كل مكان فى العالم ، وفى كل حين يجد رواة القصص جمهورا مولعا بالاصغاء لحكاياتهم ، سواء كانت الحكاية التى يقصها الراوى مجرد تقرير للأحداث الغريبة أو كانت أحدوثة تتصل بالماضى البعيد ، أو رواية متقنة أجاد ابتداعها ·

ففى سائر هذه الأحوال يجد هذا الراوى أن الرجال والنساء ـ على السواء ـ متعلقين بكلماته مشدودين اليها · لأنها تهبهم اشباع دوافع التشوق لحب الاستطلاع، أو المتعة فى الحض على الأفعال البطولية ، والتهذيب الدينى ، أو الرغبة فى الانعتاق من الرتابة التى تسود حياتهم ·

فى كل مكان فى هذا العالم الرحب : فى قرى أواسط أفريقيا ، فى القوارب التى تستخدم المجداف فى المحيط الهادى ، فى أدغال استراليا ، فى ظلال براكين هاواى ، تشد المستمعين بسحرها الغامض حكايات الماضى المثير ، وحكايات الحاضر أيضا ، وهى تحكى لهم عن الحيوانات ، والأبطال ، والآلهة ، أو عن رجال ونساء مثلهم ، أو تقوم باثراء أحاديث الحياة اليومية ·

كذلك نجد أيضا ـ سواء فى أكواخ الاسكيمو الثلجية تحت ضوء قناديل زيت الحوت ، أو فى أحراش البرازيل الاستوائية ، وفى اليابان والصين والهند أيضا نجد أن رجل الدين ، والمعلم ، والفلاح ، والصانع يشاركون فى حبهم للقصة الجيدة ، ويتفقون فى اعتزازهم بالراوى الذى يقصها فى براعة ·

والسؤال الذى يواجهنا الآن هو : ما الذى نعنيه بالحكاية الشعبية ؟

ولقد تحدثنا ـ فى ايجاز ـ عن بعض الخصائص التى تميز القصص المأثور بعامة ، ونود أن نشير ـ فى ايجاز أيضا ـ الى المحاولات التى بذلت للوصول الى نوع من التفريق الحاسم بين الأشكال القصصية المختلفة ·

ولقد استخدم اصطلاح « **حكاية شعبية** » استخداما طليقا لكى يغطى جميع أنواع القصص « الشفوى » المأثور ·

وفى الانجليزية يستخدم هذا « المصطلح » ـ غالبا ـ للاشارة الى حكاية الجنيات أو « الحواديت » ، كما يستخدم أيضا بمعنى أكثر شمولا ليتضمن كل الأشكال الروائية النثرية ، شفوية كانت أو مدونة · والتى وصلت الينا خلال العصور ·

وفى هذه الحالة فان الحقيقة الهامة هى الطبيعة التراثية للمادة ·

وفى بعض الاحيان نجد أن التعبير : حكاية العجائب أو حكاية الجنيات تستخدم للدلالة على قصص مليئة بغرائب لا تصدق كمقابل لقصة الخوارق التى يفترض ـ كما بينا ـ انها ترتكز على حقيقة ·

الأمر الثانى أن « حكاية الجنيات » تبدو أنها تتضمن وجود الجنيات فيها ، ولكن الغالبية العظمى من مثل هذه الحكايات ليس فيها ذكر للجنيات على الاطلاق ·

ومن أجل كل ذلك نجد أن علماء الفولكلور يرون أن الاصطلاح الفرنسى خير من الاصطلاح الانجليزى ، ومثله فى ذلك المصطلح الالمانى ، ففيهما « عمومية » يمكن أن تتضمنا أى نوع من القصص · ويؤثر العلماء بالتفضيل ـ فى النهاية ـ المصطلح الالمانى ·

ومهما يكن من أمر فاننا نجد أننا اذا أخذنا الحكاية الشعبية بمعنى محدد فان الدارسين يعنون بها : **الحكاية النثرية المأثورة التى انتقلت من جيل الى جيل سواء أكانت مدونة أو اعتمدت على الكلمة المنطوقة ·**

انها بالطبع ـ تمثل واحدا ـ فقط ـ من كثير من أنواع المادة القصصية وبهذا التحديد أو الاستخدام للاصطلاح فان أهم حقيقة كما ذكرنا هى طبيعة المادة « التراثية » ·

* * *

وعلى عكس الجهد الذى يبذله مؤلف القصة الحديثة أو القصة الأدبية بحثا عن الاصالة والابتكار فى معالجة القصة وفى « العقدة » ، على العكس من ذلك نجد أن راوى الحكاية الشعبية فخور بقدرته فى أن يسلم ما سبق له أن تلقاه ·

انه يحب ـ فى العادة ـ أن يؤثر فى المستمعين اليه أو فى الذين يقرءون له بتأكيد هذه الحقيقة ، وهى أنه يقدم اليهم شيئا موثقا ، وأنه قد سمع حكايته من بعض الرواة العظام ، أو من بعض الرجال المتقدمين فى السن ، الذين ما يزالون يتذكرون هذه الحكاية من الأيام الماضية البعيدة ·

اننا نجد كذلك أن الفن الشفوى فى حكاية القصة أقدم بكثير من التاريخ ،

كما أن هذا الفن لا يمكن أن يحد بقارة من القارات ، أو بحضارة من الحضارات ٠

وقد يختلف القصص ـ من حيث الموضوع ـ من مكان الى مكان آخر ، وقد يعترى التغير حالات « القص » وأغراضه عندما ننتقل من قطر الى قطر ، أو من عصر الى عصر آخر ، ولكنا نجده فى كل مكان يقوم بخدمة نفس الاحتياجات الاجتماعية والسياسية ، وكذلك الاحتياجات الفردية ٠

ان الفضول نحو الماضى يجتذب المستمعين دائما ، ويثير شوقهم لحكايات الماضى البعيد الذى يمد الرجل البسيط بجميع معارفه عن تاريخ جماعته ٠

ولقد نمت مع القص حكاية الأحداث ، وانبسط الماضى البطولى العظيم ـ غالبا ـ بغرض ارضاء الزهو والفخر القبلى ٠

كما أن الدين قد لعب ـ فى كل مكان ـ دورا هاما فى تشجيع الفن الروائى ، لأن العقلية الدينية قد حاولت أن تتفهم البدايات ، وراحت ـ لعدة أجيال ـ تحكى قصص الكائنات المقدسة ، وحكايات الأيام الغابرة ٠

ـ ٣ ـ

دراسة الحكايات الشعبية

لقد مضى أكثر من قرن من الزمان منذ أن بدأ علماء الاثنولوجيا والفولكلوريون يولون اهتمامهم بشكل جدى لجميع مظاهر التراث الانسانى ٠

وتاريخ البحث فى هذه الحقبة ، فيما يتعلق بهذه المجالات ، يظهر التغييرات المختلفة التى حدثت فى هذه المناهج ، كما يظهر أيضا البدع الكثيرة التى حدت من نشاط الدارسين ٠

وفى بادىء الأمر لا نجد سوى ملاحظات اعتباطية على التشابه الغريب فى العادات والعقائد والأغانى والحكايات الشعبية فى جميع أجزاء العالم ٠

ومن هذه البداية نجد أن التطور الطبيعى للدراسة قد أنشأ المسح المنظم الذى أدى الى حشد كثير من النظائر ، فكان أن تأثر الدارسون الأوائل تأثرا شديدا بهذه المتشابهات مما قلل ميلهم الى الاستقصاء بدقة تامة ٠

وعلى هذا فقد صارت لدينا المجموعات الضخمة « لفريزر » ، والتى أينعت فى النهاية فى « الغصن الذهبى » ، وغير ذلك من المجموعات المختلفة فى الحكايات الشعبية ٠

٠ وقد بذلت المحاولات المتأنية لتفسير هذه المواد بقدر الامكان ٠

وقد أنجزت بعض هذه الأعمال بمهارة فائقة ، وما تزال حائزة لتقدير خير الدارسين ٠

غير أن الاتجاه المبالغ فيه نحو تشكيل مدارس الفكر كان موجودا ، وكذلك محاولة حل جميع المشكلات بتطبيق قاعدة مفردة ٠

ولقد كان طبيعيا أن تقود التفسيرات المختلفة لمفهوم الفولكلور ، وأيضا المناهج المتعددة الى وجود كثير من المدارس الفولكلورية .

ونستطيع أن نذكر ـ على سبيل المثال ـ طائفة من هذه المدارس التى تبحث فى الحكايات الشعبية من مثل : **المدرسة الأدبية أو الهندية مدرسة** « بنفى » وأتباعه الذين حاولوا اقرار الأصل الهندى للحكايات الشعبية الأوربية ،

والمدرسة الأسطورية مدرسة « ماكس موللر » التى رأت أن الحكايات الشعبية « موروثات » باقية للأساطير القديمة ، وبخاصة أساطير الطبيعة ، **والمدرسة الأنثروبولوجية** ، ومن أعلامها « أندرو لانج » ، والتى اهتمت بالأساس الثقافى للحكايات ، ورأت أنها بقايا حفرية لثقافات الماضى البعيد ، **ثم المدرسة التاريخية الجغرافية** ، مدرسة « كرون » وآرنى ، وطومسون ، والتى تتبع المنهج المعروف باسمها ، والذى يسمى أحيانا : المنهج الفنلندى والذى يهتم بجمع المادة وتصنيفها ، ويرى أن لكل نبذة من المأثورات تاريخها الخاص ، يقتضى دراستها مستقلة عن غيرها .

هنالك أيضا مدارس أخرى منها **المدارس الوظائفية الحديثة** التى تقوم بفحص الحكايات فى بيئتها .

وقد شهد منتصف القرن الماضى زيادة فى الاهتمام بالحكايات الشعبية ، وانكب جامعو التراث الشعبى ـ فى معظم بقاع الأرض ـ على الاصغاء الى القصاصين وتسجيل حكاياتهم .

وأخذت الأساليب الفنية فى التسجيل والنشر التى يتبعها هؤلاء الجامعون تتطور وتنتقل من حسن الى أحسن .

وفى الوقت نفسه نجد أن بعض الدارسين قد قاموا بتصنيف الحكايات الشعبية، وبعمل « مسح » محلى بغرض تهيئة هذا القدر الكبير من المادة للدراسة العلمية .

كما قام بعضهم بوضع المناهج لدراسة المرويات الشفوية ، على حين انصرفت طائفة ثالثة الى استخدام هذه المناهج للكشف عن تاريخ كثير من القصص المشهور .

وقد أسهمت أنواع النشاط المختلفة هذه فى القاء الضوء فى كثير من الأمكنة التى كانت مجهولة من قبل .

كما أسهمت كذلك فى تصحيح النظريات المبكرة ، أو النظريات الفطيرة غير الناضجة .

وكان من نتائج كل ذلك أنه قد بدأت تتضح لنا كثير من الحقائق ، فبدأنا نرى أن الحكاية الشعبية هى أكثر أشكال المرويات عالمية ، وبدأنا نفهم علاقتها بالقصص الأدبى الذى أنتجته الحضارة الراهنة .

وأدركنا كذلك وظيفة الحكاية فى حياة أولئك الذين يقومون بروايتها ، وأولئك الذين يستمعون اليها .

وأيضا طبيعة هذا « الفن » فى الأقطار المختلفة ، والأزمنة المختلفة .

وفى الوقت نفسه نجد أن هذا الموضوع ـ بحسب طبيعته ـ موضوع عظيم الأهمية لجميع الدارسين ـ الجادين ـ للأدب . وعلم الانسان ، وعلم النفس ، وللفن بصفة عامة .